أصحاب الجنة

نسبهم

كانو إخوة من بني اسرائيل، وعن السدي قال: كان قوم باليمن[1].

موقعهم الجغرافي

جنة تبعد ستة أميال عن صنعاء، وكان هذا البستان باليمن يقال له: الضّروان دون صنعاء بفرسخين، يطؤه أهل الطريق[2].

صفاتهم

كانوا بخلاء، جهلاء[3].

حياتهم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:١٧-٣٣].

قال ابن عباس: هم كفار قريش. فضرب تعالى لهم مثلًا بأصحاب الجنة المشتملة على أنواع الزروع والثمار، التي قد انتهت واستحقت أن تجد، وهو الصرام، ولهذا قال: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ فيما بينهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾، أي: ليجدنها، وهو الاستغلال ﴿مُصْبِحِينَ﴾،أي: وقت الصبح، حيث لا يراهم فقير ولا محتاج، فيعطوه شيئًا، فحلفوا على ذلك، ولم يستثنوا في يمينهم، فعجزهم الله، وسلط عليها الآفة التي أحرقتها، وهي السفعة

(١). انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/ ٢٤٤١)، تفسير القرطبي (١٨/ ٢٠٩)

(٢). انظر: البدء والتاريخ (١/ ١٦٤)، وتفسير البغوي (٨/ ١٩٤)، وتفسير الثعلبي (١/ ٢٣٤٧)

(٣). انظر: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (١٨/ ٢٠٩).

التي اجتاحتها، ولم تبق بها شيئًا ينتفع به، ولهذا قال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم:١٩-٢٠]، أي: كالليل الأسود المنصرم من الضياء، وهذه معاملة بنقيض المقصود ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾ [القلم:٢١]، أي: فاستيقظوا من نومهم فنادى بعضهم بعضًا قائلين: ﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ [القلم:٢٢]، أي: باكروا إلى بستانكم فاصرموه. قبل أن يرتفع النهار ويكثر السؤال ﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ [القلم:٢٣]، أي: يتحدثون فيما بينهم خفية قائلين: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم:٢٤]، أي: اتفقوا على هذا واشتوروا عليه ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم:٢٥]، أي: انطلقوا مجدين في ذلك قادرين عليه، مصممين مصرين على هذه النية الفاسدة. وقال عكرمة والشعبي: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾، أي: غضب على المساكين. فلما رأوها، أي: وصلوا إليها، ونظروا ما حل بها، وما قد صارت إليه من الصفة المنكرة، بعد تلك النضرة والحسن والبهجة، فانقلبت بسبب النية الفاسدة، فعند ذلك ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم:٢٦]، أي: قد تهنا عنها، وسلكنا غير طريقها. ثم قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم:٢٧]، أي: بل عوقبنا بسبب سوء قصدنا، وحرمنا بركة حرثنا ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ هو أعدلهم وخيرهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:٢٨]، تقولون خيرًا بدل ما قلتم من الشر ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم:٢٩-٣١]، فندموا حيث لا ينفع الندم، واعترفوا بالذنب بعد العقوبة، وذلك حيث لا ينجع، وقد قيل: إن هؤلاء كانوا إخوة، وقد ورثوا هذه الجنة عن أبيهم، وكان يتصدق منها

كثيرًا، فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم، وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئًا، فعاقبهم الله أشد العقوبة، ولهذا أمر الله تعالى بالصدقة من الثمار، وحث على ذلك يوم الجداد، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام:١٤١].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ [القلم:٣٣]، أي: هكذا نعذب من خالف أمرنا، ولم يعطف على المحاويج من خلقنا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٦]، أي: أعظم وأطم من عذاب الدنيا لو كانوا يعلمون.

وقصة هؤلاء شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل:١١٢-١١٣]. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم[1].

وهذا مثل ضربه الله لكفار قريش فيما أنعم به عليهم من إرسال الرسول العظيم الكريم إليهم، فقابلوه بالتكذيب والمخالفة. وقال ابن عباس: هم كفار قريش فضرب تعالى لهم مثلًا بأصحاب الجنة، المشتملة على أنواع الزروع والثمار، التي قد أينعت، واستحقت أن تجد، وهو الصرام. والجنة كانت لرجل فمات، فورثة ثلاثة بنين له.

(١). انظر: البداية والنهاية (٢/٥٧٨-٥٨١).

كانوا قومًا باليمن، وكان أبوهم رجلًا صالحًا، وكان إذا بلغ ثماره أتاه المساكين، فلم يمنعهم من دخولها، وأن يأكلوا منها ويتزودوا، فلما مات قال بنوه بعضهم لبعض: علام نعطي أموالنا هؤلاء المساكين؟! تعالوا فلندلج فنصرمنها قبل أن يعلم المساكين، ولم يستثنوا، فانطلقوا وبعضهم يقول لبعض خفتا: لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. يعني لنجدبها وقت الصبح قبل أن تخرج المساكين ولا يستثنون. يعنى لم يقولوا: إن شاء الله.

فكان أبوهم يتصدق منها على المساكين، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين، فلما مات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم، فقالوا: قل المال وكثر العيال، فتحالفوا بينهم، ليغدون غدوة قبل خروج الناس، ثم ليصرمنها إذا أصبحوا بسدفة من الليل، لئلا ينتبه المساكين لهم.

فهم كانوا قومًا مستمسكين بشرائع الإنجيل، فإذا كان أيام صرامهم، نادوا في الفقراء والمساكين، فكان لهم ما أسقط الطير، وأخطأ المنجل، وغبر بذلك زمان حتى هلك الآباء والأولاد والأنبياء، فبخلوا بذلك، وقطعوا بذلك العادة، فأهلك الله جنتهم، وأعقبهم الندامة والحسرة[1].

(١). انظر: معالم التنزيل: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبدالله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع (١٩٤/٨-١٩٥)، والبدء والتاريخ (١٤٦/١)، وتفسير القرطبي(٢٠٩/١٨).

العبر والعظات المستفادة

قصة أصحاب الجنة لم يرد ذكرها في أي من الكتب السماوية السابقة، فهي رسالة من الله فيها من العظات والـدروس التي تنفع المسلمين:

١. ضرورة محاربة الإنسان في ذاته أمراض شح النفس والبخل.

٢. إن الابتلاء كما يكون بالشر يكون بالخير، فليست إفاضة المال والجاه والسلطان هي دومًا من علامات رضا الله.

٣. شكر الله تعالىٰ علىٰ النعمة ليس فقط باللسان، وإنما لابد أن يكون بالفعل وأداء الحقوق.

٤. الغفلة عن رقابة الله تعالىٰ، وعدم محاسبة النفس سبب للهلاك في الدنيا قبل الآخرة.

٥. بيان الفرق بين خسارة الدنيا التي قد تعوض، وبين خسارة الآخرة التي لا تعوض أبدًا، والعياذ بالله.

٦. التنبيه لإيقاظ الضمائر من غفلتها وإحيائها من أجل التوبة والرجوع عن الذنب طاعة لله تعالىٰ.

٧. أداء حق الله، هو من شكر النعم، ووجه من التكافل في المجتمع الإسلامي.

٨. إن الله علام الغيوب، لايخفي عليه شيء.